﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ
وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ
وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ
كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إشْهاد الرّسل يومَ القيامة، وسؤال عيسى عنِ المعجزات والبَلاغ

لمّا وردتِ الآيةُ السّابقةُ: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ توبيخًا للأمم السّابقة، ناسبَ أن تتبعَها هذه الآيةُ في ذِكر أجدرِ الأُمَم بالتَّوبيخ والملامَة، وهمُ النَّصارى الَّذين وصفوا اللّه تعالى بما لا يَليقُ بعاقلٍ أن يَصِفَ الإلهَ به، وهو اتِّخاذُ الزَّوجةِ والولدِ، فكان ذكرُ النِّعمِ توبيخًا للنَّصارى، وتقريعًا لهم على سوءِ مَقالَتِهم؛ فإنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِن تِلكَ النِّعمِ المعدودةِ على عيسى تدُلُّ على أنَّهُ عَبدٌ، وليس بإلهٍ[1].

من ناحية أخرى، فإنَّ هذه الآيةَ شروعٌ في بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ واحدٍ منَ الرُّسُلِ المجموعينَ منَ المفاوضة على التَّفصيل إثرَ بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ الجميعِ على وجه الإجمال؛ ليكونَ ذلك كالأنموذجِ لِتفاصيلِ أحوالِ الباقينَ، وتخصيصُ شأنِ عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلًا من بين شؤون سائر الرُّسل عليهم السلام؛ لِما أنَّ شأنه عليه السلام متعلِّقٌ بكلا الفريقينِ من أهل الكتاب الَّذينَ نُعيت عليهم في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/458، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/338.

السّورة الكريمة جناياتُهم، فتفصيلُه أعظمُ عليهم، وأَجلبُ لِحسرتِهم وندامتِهم، وأفتُّ في أَعضادِهم، وأَدخَلُ في صرفِهم عن غيِّهم وعنادِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: الأَيدُ هو القوّةُ الشَّديدةُ المضمَّنةُ معنى الحِفظِ، وكأنّ معنى اليدِ مضمَّنٌ في (أيدٍ)، فيقالُ: أيَّدَ فلانٌ فلانًا؛ أي: أخذَ معهُ بيدِهِ في الشَّيءِ الّذي يقوّيه فيه، وأيَّدتُكَ على معنى التَّكثير؛ أي: قوَّيتُكَ قوّةً شديدةً معَ زيادةٍ في الحفظِ، والمصدرُ التَّأييدُ[2].

2) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: هذا التَّركيبُ الإضافيُّ من إضافة الموصوف إلى الصِّفة؛ للمبالغة في الاختصاص[3]، وأصلُه الرّوحُ القُدسُ؛ أي: الرّوحُ المقدَّسةُ، ومعنى القُدس: الطَّهارةُ العلميَّةُ الدّائمةُ الّتي لا يلحقُها نجسٌ ظاهرٌ ولا رِجسٌ باطنٌ، فَروحُ القُدُسِ بمعنى: الرّوح المُطهَّرةِ المباركةِ، وهو وصفٌ لِجبريلَ عليه السلام[4].

3) ﴿ٱلْمَهْدِ﴾: أَصلُ المَهد التَّوثيرُ، ويُقال للفِراشِ: مِهادٌ؛ لوَثارته، ثمَّ أُطلقَ على المكانِ المُمَهَّد الموطَّأ، ومنه: المُهدةُ منَ الأَرض: لِما انخفضَ في سهولةٍ واستواءٍ، ومَهَّدتُ لكَ كذا: هيّأتُه وسوّيتُهُ، وتَمهيدُ الأُمورِ: تَسويَتُها وإِصلاحُها، ومَهدُ الصَّبيِّ: مَوضِعُهُ الَّذي يُهَيّأُ لَهُ، ويوَطَّأُ؛ ليَنامَ فيه وقتَ تربيته[5].

4) ﴿وَكَهْلًا﴾: الكَهل: يُقالُ لانتهاء الشَّباب وكَمال قوَّته؛ لِوصولِ جسمِهِ إلى أقصى نموٍّ وامتدادِهِ، ولهذا سُمّيَ الحليمُ العاقلُ بالكهل؛ للزومِه لكمالِ النّموِّ. ورَجلٌ كَهلٌ، وامرأَةٌ كهلةٌ: إذا انتهى شَبابُهما، وبدأت مرحلةُ عمرٍ جديدةٌ عندَهما، والكهلُ منْ عُمُرِ ثلاثٍ وثلاثينَ سنة، إلى الأربعين، أو إلى الخمسين سنة، والكاهِلُ للإنسان مُقدَّمُ الظّهر ما بين الكتفين[6].

5) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحُكْمُ بمعنى المنع لإصلاحٍ، فهو ضبطٌ يمنعُ منَ التَّسيُّب، وحكَمَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أَيَدَ).
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/316.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قدس)، وابن جرير، جامع البيان: 2/320.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كهل).

الشَّيءَ وأحكمه: منعَه منَ الفسادِ وأصلحَه. ومن معنى الضَّبطِ الحُكْمُ بمعنى القضاءِ، والحاكمُ: السُّلطانُ الّذي يضبطُ أمورَ النّاسِ، ويمنعُها منَ التّسيُّب، والحكمةُ: وضعُ الشَّيءِ في مَوضِعه، وصوابُ الأمرِ وسدادُهُ للمنع منَ الفساد[1].

والحكمةُ في الآية بمعنى فهمِ معاني الكتابِ الّذي أنزلتُه إليكَ، وحسنُ التَّصرُّف في الأمور[2].

6) ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: الكتابُ الّذي أنزلهُ اللّهُ على موسى ﷺ، أَساسًا لشريعتِهِ، ولا يسمَّى به إلّا الكتابُ الّذي كانَ قبلَ التَّحريف والتَّبديل، فما يتداوله اليهودُ الآنَ، يحرُمُ تسميتُهُ التَّوراةَ.

7) ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: الكتابُ الّذي أنزلَهُ اللّهُ على عيسى ﷺ، أَساسًا لشريعتِهِ، ولا يُسمّى به الكتابُ الّذي يتداولُه النّصارى بعدَ التَّحريف، فيحرمُ تسميتُهُ بالإنجيل[3].

8) ﴿تَخۡلُقُ﴾: الخلقُ هو التَّقديرُ المستقيمُ للشَّيءِ، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، مثلُ: خالق السّماوات والأرض، وخَلَقَ اللّهُ الأشياءَ خَلقًا، وهو الخالقُ والخَلّاقُ؛ ولا تَجوزُ هذه الصِّفَةُ بالألف واللّام لِغير الله تعالى. ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشَّيء منَ الشَّيء، كخلق الإنسان من طينٍ. والاستعمالان مختصّان باللّه تعالى، أمّا الّذي يكونُ بالتَّحوُّلِ من حالةٍ إلى أخرى فيصحُّ أن يتَّصفَ به غيرُ اللّه في بعض الأحوال[4]، كما في هذه الآية، والعربُ تسمّي تصويرَ الشَّيءِ وتقديرَهُ: تخليقًا؛ فعلى ذلك جاءت كلمةُ ﴿تَخۡلُقُ﴾ في الآية[5].

9) ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾: اتِّخاذُ وضعٍ مناسبٍ لأمرٍ ما، وهي الحالةُ الظّاهرَةُ الّتي يكونُ عليها الشَّيءُ، محسوسةً كانت أو معقولةً، لكنَّ استعمالَها في المحسوس أكثرُ، ففي معنى اللّفظ معنى تشكيلِ الشَّيءِ وإعدادِه؛ ليكونَ شيئًا معيَّنًا مطلوبًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/215.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/1180.
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 3/648.
(6) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هيأ).

10) ﴿وَتُبْرِئُ﴾: بَرَأَ بمعنى خَلَقَ، والبارئُ هو الَّذي خَلَقَ الخَلقَ لا عن مِثالٍ، وقلَّما تُستَعمَلُ برأَ في غير الحيوان، فيُقالُ: برَأَ اللّهُ النّسَمَةَ، وخَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، كما يدلُّ البَرءُ على التَّخليص منَ العيوبِ، والسُّقمِ، والتُّهمةِ، والدَّينِ، ويُقالُ بَرِئَ المريضُ منَ المرضِ: شُفيَ وتخلَّصَ ممّا فيه[1].

11) ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الكَمَهُ هو العَمَى الَّذي يولَدُ عليه الإنسانُ، والأكمَهُ: الَّذي يولَد لا بَصَرَ له، وإطلاقُهُ على الّذي لايُبصِرُ مِن عَرَضٍ أو مرضٍ من تقييدِ المُطلَقِ[2].

12) ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: البَرَصُ: داءٌ؛ وهو بياضٌ يقعُ في الجسد، يصيبُ الجلدَ، ويتأثَّرُ به البدنُ، وينفرُ النّاسُ منَ المصاب به، ولمَن يُصابُ بالمرضِ يُقالُ له: أبرصُ، والجَمعُ بُرصٌ[3].

13) ﴿بِإِذْنِى﴾: يقالُ: آذَنَني فُلانٌ أَعلَمَني، والإذنُ في الشَّيءِ الإعلامُ بإجازتِه والرُّخصةِ فيه، ويدلُّ كذلكَ على الأمرِ به، وكذا يدلُّ على المَشيئَةِ والتَّيسيرِ، وإذا أُسندَ الإذنُ أو أُضيف للّه سبحانه فيُراد به أمرُه، وإرادتُه، أو تيسيرُه[4].

14) ﴿كَفَفْتُ﴾: الكفُّ: ا لمنعُ، ومنه قيلَ لكفِّ الإنسان: كفٌّ؛ لأنَّهُ يمنعُ ما فيه، ولمّا كانَ الكفُّ بمعنى المنع فقد أُطلقَ على الدَّفعِ، سواءٌ أكانَ ذلك بكفٍّ أم بغيرِها، وكففتُ في الآيةِ، بمعنى: منعتُ[5].

15) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمعُ بيّنةٍ، بانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشَّيءُ مِنَ الدَّلالةِ وغيرِها، وفلانٌ أَبيَنُ مِن فُلانٍ؛ أي: أَفصحُ مِنه، وأَوضحُ كلامًا. وتأتي البيّنةُ بمعنى الأمرِ الواضحِ، وبمعنى الحُجَّةِ؛ لأنَّه بها ينكشفُ الحقُّ، ويتّضِحُ، فالبيّنةُ لاينازِعُ فيها منازِعٌ لِوضوحِها[6]، والمرادُ بالبيِّناتِ هنا معجزاتُ سيِّدنا عيسى[7] عليه السلام.

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برص).
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن)، ورضا، تفسير المنار: 7/206.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/216.

16) ﴿سِحْرٌ﴾: هو تمويهٌ وتخييلٌ به يَرى الإنسانُ الشَّيءَ على غير حقيقته، فهو من خِداع الحواسِّ والقلبِ؛ لإخراج الباطل في صورة الحقّ. ولِدقّة السِّحر في خداع الحواسّ، ولطافتِهِ؛ أُطلقَ السِّحرُ على كلِّ ما لَطُفَ منَ الكلام، وأثَّرَ في القلوب[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِنّةُ اللهِ بالخوارق على عيسى وأمِّه من دون الخلائق

قال اللّه: يا عيسى بنَ مريمَ؛ اذكر نعمتي عليكَ؛ إذ خلقتُك من غير أبٍ، واذكر نعمتي على والدتِكَ حيث اصطفيتُها على نساء العالمين، وبرّأتُها ممّا نُسِب إليها من مذامٍّ وافتراء.

واذكر؛ حينَ تأييدي إيّاكَ بجبريل ﷺ، وتكليمِكَ النّاسَ، وأنتَ رضيعٌ قبلَ أوانِ الكلام، وتدعوهم إلى اللّه، وأنت كبيرٌ، قد اجتمعَتْ قوَّتُك، وكمُل شبابُك، بما أوحاه اللّه إليك منَ التّوحيد.

واذكر نعمتي عليكَ؛ بتعليمِكَ الكتابَ، وإصابةَ الحقِّ؛ في الرّأيِ والقولِ والعملِ، وبتعليمِكَ التَّوراةَ والإنجيلَ.

واذكر نعمتي عليكَ؛ إذ تجعلُ قطعةً منَ الطّينِ مثلَ هيئةِ الطَّيرِ في شكلِها ومقاديرِ أعضائِها، فتنفخُ فيها - بعدَ ذلكَ - فتكونُ طيرًا بإذنِ اللّه وتكوينِه.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ جعلتُك تُبرِئُ مَن وُلِد أعمى فتمنحُهُ الإبصارَ بإذني وتيسيري، وحينَ تُخرِجُ الموتى من قبورِهم أحياءً - بعدَ أن صارت رميمًا - بإذني وتيسيري.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ منعتُ بني إسرائيلَ عنك، وقد أرادوا قَتْلَك لمّا جِئتَهم بالمعجزات الواضحات الدّالّاتِ على نبوَّتِك، فقال الكافرونَ منهم: ما جاءَ به عيسى منَ البيِّناتِ لم يكن إلّا سِحرًا ظاهرًا[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/55 - 56، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿قَالَ﴾ في السّياق:

ما سوف يَقَعُ مِن مَشاهِدِ القيامة يقينٌ لا رَيْبَ فيه

لمّا كانَ السّياقُ دالًّا على أنَّ الكلامَ سيقعُ في يوم القيامة، كان التَّعبيرُ بالفعل الماضي عُدولًا عنِ الظّاهر؛ لِتنزيلِ المستقبلِ الّذي هو يومُ القيامةِ؛ نَظمًا له في سِلكِ المقطوعِ به لِصدورِهِ عن مَن لا خلافَ في إخبارِهِ، ووعدِهِ، ووعيدِهِ، منزلةَ الماضي المعلومِ تذكيراً بما لذلكَ اليومِ من تحتُّمِ الوقوعِ، وتصويراً لِعظيمِ تحقُّقِهِ، وتنبيهًا على أنَّه لِشدّةِ قُربِهِ، كأنَّهُ قد وقعَ ومضَى[1].

دَلالةُ إظهارِ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، في مَوضِعِ الإضمار:

تذكيرٌ بمقامِ الألوهيّةِ المنزَّهِ عمّن سواه

لمّا كانَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهُ﴾، قد ذُكرَ مِن قريبٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ هنا: (إذ قال: يا عيسى بنَ مريمَ)، فعدلَ إلى الاسمِ الظّاهر، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾؛ للمبالغة في التَّهويل؛ لأنَّ المقامَ مقامُ توبيخٍ للكافرينَ يومَ القيامة، وفيه تذكيرٌ بمقامِ الألوهيَّة لِمَن هو في الدُّنيا كذلك[2].

دَلالةُ النِّداء بـ ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

عيسى عليه السلام لا ينفكّ عن كونِه عَبْدًا لربّ الأنام

ابتدأ الكلامَ بنداء عيسى عليه السلام بنسبةِ بنوَّتِه إلى أُمِّه؛ للإيذان بأنَّ كلَّ ما يفعلُهُ لايخرجُ عن كونِه عبدًا لله، وأنَّهُ ابنُ مريمَ، وليس ابنَ الله ﷻ، كما يزعمُ كثيرٌ منَ النَّصارى، وفي ذلك إشارةٌ تعريضيّةٌ للقائلين بذلك منهم حتّى يُصَحِّحوا عقيدتَهم الفاسدةَ.

دَلالةُ لفظِ ﴿نِعۡمَتِي﴾ بين الاسميّة والمصدريّة:

ذِكْرُ المفردِ وإرادَةُ الجمعِ، على معنى تعدُّدِ أفراد النِّعَم

يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الاسمَ الحاصلَ منَ المصدرِ؛ أي: الأثرَ الّذي يكونُ على العبدِ، وذكرَ المفردَ وأرادَ الجمعَ؛ لأنَّهُ مضافٌ يصلُح للجنسِ، فاللَّفظُ مفردٌ ومعناه جمعٌ، على معنى تعدُّد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/339.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

أفراد النِّعَم. ويَحتملُ أنَ يكونَ لفظُ ﴿نِعۡمَتِي﴾ مصدرًا؛ بمعنى: إنعامي، والمعنى: اذكُر إنعامي عليك وعلى والدتك[1]. والحملُ على الأوَّلِ أولى، ولاسيَّما أنَّ المرادَ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الجمعُ، فاللَّفظُ واحدٌ، ومعناه جمعٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34][2]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالأثر الظّاهر أحرى وأظهرُ في توبيخ الكافرينَ، ولأنَّ المقامَ مقامُ ذكر النِّعَم وليس الإنعامَ، كما يدلُّ عليه السّياقُ من ذكر تخليق الطَّير، وإبراءِ الأكمَهِ والأبرصِ، وغيرِها؛ بصيغة المضارع.

فائدةُ الإضافة للضّمير في التّركيب الإضافيّ: ﴿نِعۡمَتِي﴾:

لا نعمةَ موفورةٌ إلَّا نعمةُ الله تعالى

أفادتِ الإضافةُ تخصيصَ النِّعمة باللّه تعالى في مقام ظهور الخلائِق كلّها؛ ليفيدَ أن لا نعمةَ إلّا نعمةُ اللّه تعالى، كما أنَّ الإضافةَ أفادت تقويةَ إرادة الجمع في: ﴿نِعۡمَتِي﴾؛ لِصلاحيَّة اللَّفظ لإرادة الجنس[3].

الأمرُ بذكرِ النِّعَمِ يومَ القيامةِ، إظهارٌ لكرم المنعِم:

توبيخٌ من جعلوا عيسى إلهًا، أو أنكروا رسالتَه وهديَه

لمّا كانَ الأمرُ بذكرِ النِّعَم في الموقف يومَ القيامة، فليسَ المرادُ به ظاهرَهُ، وهو تكليفُ عيسى ﷺ بشُكرِها، والقيام بواجبِها في ذلك اليوم؛ لِانتهاءِ التَّكليفِ يومَ القيامةِ، وإنّما المرادُ منَ الأمرِ لازمُهُ، وهو إظهارُ عيسى ﷺ نعمَ اللّهِ بتعدادِها، والتّلذُّذِ بذكرها على رؤوس الأشهاد؛ لِتكونَ توبيخًا، وزجرًا للكفرة الّذينَ أفرطوا فيه فجعلوه إلهًا، أو فرَّطوا فأنكروا رسالتَهُ، فالسّياقُ على معنى توبيخ الكافرين، وتنبيهِ مَن هم في الدُّنيا إلى اتِّباعِ الحَقِّ[4]. ثمّ إنَّ نداءَ اللّه سبحانه لعيسى وأمرَه؛ يعني: أنّ هناك آمِرًا هو اللّه،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/101.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

ومأمورًا هو عيسى عبدُ اللّه ورسولُه، وفي ذلك برهانٌ لمَن يعقلُ منَ النَّصارى حتّى يعلمَ الفرقَ بين اللّه الخالق الآمر، والعبدِ المخلوقِ الّذي يتلقّى الأوامرَ.

فائدةُ العطفِ وحرفِ الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾:

نعمةُ اللهِ على عيسى نِعمةٌ على أُمِّهِ البَتول

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ الدّالُّ على الاستعلاءِ استغراقَ نعمةِ اللّه على نبيِّ اللّهِ عيسى عليه السلام وعلى والدتِه، وعطفَ قولَه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾؛ لأنَّهُ في مقامِ تَعدادِ النِّعمِ وإظهارِها، فاقتضَى التَّفصيلَ، وأيضًا للزّيادَة في تبكيت اليهودِ وكمدِهم؛ لأنَّهم تَنَقَّصوها بأقذعَ ممّا تنقَّصوهُ، وثالثةً: لأنَّ النِّعمةَ على الولدِ نعمةٌ على أبويه، فإنَّ مكارمَ الأخلاق دليلٌ على طيبِ الأعراق.

وكرَّرَ حرفَ الجرِّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ معَ أنَّه واجبُ التَّكرير؛ للإشعار بأنَّ نعمتَه تعالى على عيسى عليه السلام مغايرةٌ لِنعمتِه على والدتِه، أمّا نعمتُه على والِدَتِه فإنه اصطفاها لطاعته، وطهَّرَها من كلِّ دَنَسٍ، واصطفاها على نساء العالمين في زمانها، وكان رِزقُها يأتيها مِن عندِه، وهي في محرابها[1].

مناسبةُ التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾، وغرضُه في سياق الآية الكريمة:

عَظَمةُ الزَّمن في عظمة ما فيه من أحداثٍ وتحدّيات ومِحَنٍ

لا تَردُ ﴿إِذْ﴾ في بدايةِ كلامٍ إلّا عندَ ذكرِ أمرٍ ذي شأنٍ؛ لأهمّيَّتِه، أولِغرابتِه، أو لِعظمتِه، بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ ما بعدَ (إذ) مثلًا للذِّكرى، والتّدبُّر، والعِظَة، فأشعرت ﴿إِذْ﴾ بعِظَمِ شأنِ كلِّ ما اقترنَ بها منَ الكلام في هذه الآية، ولمّا كانت (إذ) ظرفَ زمانٍ أفادت عِظَمَ زمن الأمور العظيمة الّتي ذُكِرت في هذهِ الآية؛ إذ يَعظُمُ الزَّمنُ بعِظَمِ ما يقعُ فيه.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/101.

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، ودلالةُ الجملة الحاليّة:

كان المسيحُ يكلِّمَ النّاسَ في المهْدِ بتسخير الله جبريلَ لتأييده

عبَّر بقوله: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يملكُ لِنفسِه أن يكلِّمَ النّاسَ لولا تأييدُ جبريلَ له؛ وفيه دليلٌ على نفي الألوهيَّة عنه، فيتضمّنُ توبيخًا لِمَن نفى عبوديتَه لله تعالى. ويُشعرُ الكلامُ كذلك أنَّ التَّأييدَ بروح القُدُس مِنَ النِّعَم العِظام.

ومعنى الجملةِ الحاليّةِ ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾: قوَّيتُكَ، وأعنتُكَ بروح القُدُس في حال تكليمِكَ النّاسَ في حالَتَي الرَّضاعةِ قبل أوان الكلام، والنُّضوجِ وقد اجتمعت قوَّته، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُسِ مُقترنًا بتكليمه النّاسَ صبيًّا وكهلًا[1]. وتَحتملُ أن تكونَ الجملةُ عطفَ بيانٍ لقولِه: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾؛ لِورودها في معرضِ البيانِ؛ للتَّأييدِ بروح القدس[2]، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُس في الآيةِ خاصًّا بعيسى عليه السلام في المهدِ وكهلًا على التَّوجيهين، سوى أنّ اعتبارَ التّكليم حالًا للتّأييد، يعني: أنّها الحالُ الوحيدةُ الّتي يُؤيَّد فيها عيسى عليه السلام بروح القُدُس، لكنَّ اعتبارَ التّكليم بيانًا للتّأييد لا يمنعُ كونَهُ مُؤيَّدًا بروح القُدُس في أحوال أُخرى.

إيثارُ صيغة المضارع، والعُدولُ عن ذِكْر القَوْم إلى ذِكر النَّاس:

مُعجزةُ عيسى عليه السلام معجزةٌ للبشريّة

جاءَ الفعلُ ﴿تُكَلِّمُ﴾ بصيغة المضارع؛ لتصوير حالة الإعجازِ واستحضارها حتَّى كأنَّ جميعَ الخلائقِ يشاهدونَها؛ إظهارًا لِمعجزاتِهِ وتقريرًا لِنِعَم الله تعالى.

وقال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، ولم يقُل: (تكلِّمُ قومَكَ)؛ للإشارة إلى ظهور كلامِه في المهد بينَ النّاس، وليسَ بينَ قومِهِ فقط؛ تعظيمًا لهذه النِّعمة، وتفخيمًا لها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/214.
(2) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على تفسير البيضاويّ: 7/598.

بلاغةُ الكناية بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

التّعبيرُ بالكناية أبلغُ في التّعْدادِ، وأدلُّ على المراد المستفاد

عبّرَ بقوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ على طريق الكناية، فالمرادُ لازمُهُ؛ لأنَّهُ يلزمُ من كونِه في المهد أن يكونَ صبيًّا، والتَّعبيرُ بالكناية هنا أبلغُ منَ التّصريح وأَولى؛ لأنَّ الصَّغيرَ يسمَّى طفلًا أو صبيًّا إلى أن يبلغَ الحلُم، ولهذا عدلَ عنه[1]، والمعنى: يكلِّمُ النَّاسَ صبيًّا وكهلًا، ولمَّا كان الكلامُ في سياق بيان النِّعَم عبَّر بأسلوب الكناية؛ لإفادة التَّعجيبِ من هذه النِّعمة أكثرَ ممّا لو أَكّدهُ بقوله: (صبيًّا)؛ لدلالة ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ على عدم القدرةِ على الكلام، وضعفِ القوى على سبيل الكناية، ولذلكَ قالَ قومُ مريمَ - حين أشارتْ إلى مولودِها عيسى؛ ليسألُوه، ويكلِّموه - مُنكرين عليها هذا الصَّنيعَ: كيف نكلِّمُ مَن لا يزال في مهدِه طفلًا رضيعًا؟! ممَّا يبيِّنُ بلاغةَ الكناية الحاصلة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾؛ في إظهار هذه النِّعمة.

سببُ اقترانِ قولِه تعالى: ﴿وَكَهۡلٗا﴾ بقوله ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

نُزولِ عيسى عليه السلام قبلَ يومِ القيامة مُعْجِزةُ النّهاية

جعلَ اللّهُ تكليمَ عيسى عليه السلام النّاسَ بدعوتهم إلى الحقِّ وقتَ الكهولةِ منَ النِّعَمِ الظّاهرة العظيمة، ولمّا كانَ الكلامُ حينَ الكهولةِ ليسَ منَ الخوارقِ، أفادَ الاقترانُ أنَّ كلامَه عليه السلام في حين الطُّفولة وحين الكهولة كان على نسقٍ واحدٍ، من غيرِ تفاوتٍ في كلامه في هاتينِ الحالتَين، صادرًا عن كمال العقل، مع أَنَّ غيرَه يَتفاوتُ كلامُهُ فيهما تفاوُتًا بَيِّنًا، وهذه خاصّيَّةٌ شريفةٌ كانت حاصلةً له، وما حَصَلَت لأحدٍ منَ الأنبياء قبلهُ ولا بَعدَهُ. وبه استُدلَّ على أنَّه سينزلُ، فإنَّهُ رُفِعَ قبلَ أن يَكتهِلَ، وفيه إشعارٌ باستمرار حياته إلى سنّ الكهولة، فأفادتِ الكلمةُ بالاقتران معنًى غيرَ المعنى الّذي ستفيدُه لو جاءت وحدَها، فليس القصدُ أنَّ كلًا منَ الكلام في المهدِ وفي الكهولةِ آيةٌ[2]. وذهبَ بعضُ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/598.

المفسّرينَ إلى أنَّ ذكرَ الكهولةِ إشعارٌ بنزول عيسى منَ السَّماء؛ لأنَّه رُفِعَ قبلَ أن يتكهّل، فيكون كلٌّ منَ الكلام في المهد وفي الكهولة آيةً[1].

نُكتةُ التَّرتيب في ذكر ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾:

يحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب؛ للإشارة إلى صُحُفِ إبراهيمَ وغيرِها، فيكونُ تخصيصُ التَّوراةِ والإنجيلِ بالذّكر زيادةَ تشريفٍ لهما[2]. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ الكتابِ تعليمَ الكتابةِ والخطِّ، ونكتةُ التَّرتيب فيها على هذا القول؛ أنّه ذكرَ تعلُّمَ عيسى عليه السلام الكتابَة والقراءة اللّتين كانتا سببًا لِتعلُّم الحكمةِ الّتي هيَّأتهُ لِتعلُّم التَّوراةِ، فتهيّأَ لأن ينزِّلَ اللّهُ عليه الإنجيلَ، فجاءَ التَّرتيبُ على جهةِ التَّرقّي في تحصيل العلوم، حتّى وصلَ إلى ما اختُصَّ به الأنبياءُ عليهم السلام.

الكتب السّماويّة، نحت مَنحَى تَرقّيًا في تحصيل الأنبياء للعلوم

نُكتةُ المضارع وحذفِ المفعول، في جملة: ﴿تَخۡلُقُ﴾:

لمّا كانَ الخطابُ في يوم القيامة، ويقتضي أن يكونَ التَّعبيرُ عن خلقِ عيسى للطَّيرِ بصيغة الماضي، كانَ مجيءُ الفعل المُضارعِ ﴿تَخۡلُقُ﴾؛ للتَّعبير عَن فِعلٍ مضى هو لِتَصوير حالة الماضي وتَمثيلِهِ حاضرًا في الذِّهن، كَأَنَّهُ حاضِرٌ في الخارج، لا لإفادة الاستمرار، فإنَّه فعلٌ مضى وانتهى، والكلامُ على معنى التَّذكير به، كما دلَّت عليه ﴿إِذۡ﴾ المفيدةُ للظّرفيّة الماضية، وسياقُ الكلام[3]. ويجري الكلامُ مثلُه في الأفعالِ: ﴿فَتَنفُخُ﴾، ﴿فَتَكُونُ﴾، ﴿وَتُبۡرِئُ﴾، ﴿تُخۡرِجُ﴾.

معجزةُ عيسى عليه السلام، عظيمة بحيث لا يحيطُ بها وصفٌ

أمّا الإيجازُ فلأنَّ أصلَ الكلام: تخلُقُ منَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطَّير أو أجسامًا كهيئة الطَّير، فحُذفَ للإيجاز لدلالة المشبَّه به عليه، وللإشعار بعظمة المعجزة، بحيثُ لايحيطُ بها وصفٌ ولا لفظٌ، وإنّما دلَّ عليها فعلُ التَّخليق.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/437، والخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/205.

نُكتةُ إيثار التَّشبيهِ بالكاف في سياق الآيةِ الكريمة:

تشبيهُ ما يُخْلَقُ بِهَيئة الطَّير، لا تَشْبيهُه بالطَّير ذاتِهِ

لمّا كانَ التَّشبيهُ بالكاف يُفيد تَشبيهَ الصِّفات بَعضِها ببَعض، والتَّشبيهُ بالمثلِ يُفيدُ تَشبيهَ الذَّواتِ بَعضِها ببَعض، آثرَ التَّعبيرَ بكاف التَّشبيه دونَ كلمةِ (مِثل)؛ لأنَّ المرادَ التَّشبيهُ بصفةٍ واحدةٍ هي هيئةُ الطَّير، وليس تشبيهَ الّذي خلقَهُ بذات الطَّير، فلو قالَ: (مثلَ هيئةِ الطَّيرِ)، لاقتضى المماثلةَ في نفخ الرّوح، وتقدير حياتِها ورزقِها وأحوالِها وغيرِه، وليسَ هو المقصودَ، فعبَّرَ بأداة التَّشبيه الكاف؛ لِمناسبة المراد.

سرُّ التّأنيث في ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، وسببُ إيثار تخليق الطَّير دونَ غيرِه:

خـلـقُ الـطَّـيرِ أعـجـبُ وأظـهـرُ في بديع الصُّنع، لـتـنـوّعِـهـا وتعقيدِها

أنّثَ الضَّميرَ في المَوضعينِ في قوله سبحانه: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾؛ لِعودِه إلى معنى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى عليه السلام، وينفخُ فيها؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يخلقُ هيئةَ الطَّيرِ؛ لأنَّها ليست مِن خلقِه، ولا مِن نفخِه في شيءٍ، بل كانَ يخلقُ الهيئةَ الّتي مِنَ الطّين، والمعنى: تخلُقُ منَ الطّينِ هيئةً مثلَ هيئةِ الطَّير، فتنفخُ في الهيئةِ، فتكونُ طيرًا بإذن الله. واختارَ ابنُ عَطيَّةَ أن يكونَ الضَّميرُ هنا عائدًا بدلالة الاقتضاء إلى ما تقتضيه الآيةُ ضَرورَةً، وذلك أنَّ قولَه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يقتضي صوَرًا أو أجسامًا أو أشكالًا[1].

ولمّا كانَ الإنسانُ يَدِبُّ على الأرضِ، كانَ خَلْقُ ما يطيرُ في الجوِّ أعجبَ عندَهُ منَ المخلوقاتِ الّتي تدبُّ على الأرضِ، فلم يذكُرِ اللهُ تعالى البقرَ أو الغنمَ أو الإبلَ، بلِ اختارَ مِنَ الآياتِ أشدَّها إعجازًا وتَعْجيبًا عندَ البشر؛ كما أنَّ في الطّير من ظهور بديع الصُّنع وحُسن الخَلق ما ليسَ في غيرِه؛ لِكي تتحقَّقَ المعجزةُ في أنفُس المُخاطَبين.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/258، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

دلالةُ فاء التَّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾:

سُرعة تعاقُبِ الأفعال، من طَلاقَة قُدْرةِ ذي الجلالِ

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ النَّفخ للتَّخليق، وتعقيبَ تكوين الطَّير لِنفخِ عيسى ﷺ؛ للإشعار بانتفاء المُهلة وسُرعة الأمر مع عِظمِه؛ للإشارة إلى أنَّ المعجزةَ في الفعل، وفي سُرعة التَّكوين والتّحويل.

دلالةُ الحالِ في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾، ونكتةُ تكريرِها:

مُعجزاتُ عيسى ﷺ، كانت بعلمِ اللهِ، وعَونِه

لمّا كانَ قولُه: ﴿بِإِذْنِي﴾ حالًا دلَّ على اقتران إذنِه تعالى بكلِّ فعلٍ من أفعاله المذكورة؛ ليفيدَ أنّ تخليقَ عيسى لِهيئةٍ كهيئة الطَّير كانَ بعلمِ اللّه، وعونِه، وتمكينِه، ونفخِه فيه، وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ، وإخراجَ الموتى كذلك. كما أنّهُ لمّا كانَ الحالُ قيدًا لِعاملِه أفادَ أنَّ ﴿بِإِذْنِي﴾ قيدٌ لكلِّ فعلٍ مذكورٍ في الآيةِ ممّا فعله عيسى ﷺ.

وفي تكرير الإذنِ مُضافًا إليه سبحانه إشارةٌ إلى أنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذهِ القوَّةَ دائمًا على الاطِّرادِ في كلِّ الأحوال والأوقات، بل كانت هذه الآيةُ كغيرها لا تقعُ إلا بعلمِ اللّه، وتيسيرِه، ومشيئتِه، فتقعُ في الوقت الّذي يأذنُ به اللّهُ[1]. كما أفادَ التَّكريرُ التَّنبيهَ على أنَّ إذنَه تعالى مقترنٌ بكلِّ معجزةٍ من هذه المعجزات؛ حتَّى لا يتسرَّبَ إلى الذِّهن أنَّ تلكَ الخوارقَ من صُنع عيسى الذّاتيِّ. ولأنَّ مقامَ الآية هنا مقامُ تعداد نِعم اللّه على عيسى ﷺ المقترنةِ بتأكيد كَونِ ذلك واقعًا بقُدرة اللّه تعالى وتخليقِه لا بقُدرة عيسى وإيجاده - ناسَبَه الإسهابُ[2]، فقرنَ قولَه: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربعَ مرّاتٍ معَ كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التَّخليقِ أو النَّفخ أو الإبراءِ أو الإحياء. كما أنّ تكرارَ الإذنِ مضافًا إليه سبحانَه يُزيلُ شُبهةَ النَّصارى في علَّةِ اتّخاذ عيسى إلهًا؛ بأنّه يحيي الموتى، ويخلقُ منَ الطّين طيرًا، فبيّن النّظمُ الجليلُ أنّه لا يستطيعُ أن يفعلَ هذا من نفسِه، ولكن بإذنِ اللّه، وإرادتِه، وتيسيرِه، وقدرتِه.

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/56.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/407، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

سببُ تخصيص كلمةِ ﴿بِإِذْنِي﴾، في أربعة مواضعَ منَ الآية:

ما يُنسَبُ لكمال الـلـه تـعـالى، غـيرُ مـا يُـنسَبُ لـخـصـوصـيّـةِ عيسى عليه السلام

خصَّ كلمةَ ﴿بِإِذْنِي﴾ في أربعةِ مواضعَ، ولم يذكرها مع قولِه: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، ولا معَ: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾؛ لأنَّهُ في هذين الموضعين نسبَ اللّهُ تعالى الفعلَ إلى نفسِه في: ﴿عَلَّمْتُكَ﴾ و﴿كَفَفْتُ﴾، فلا يناسبُه التَّقييدُ بـ (بإذني)، وأمّا الأمورُ الّتي خصَّ عيسى عليه السلام بها، ونسبَها إليه، وهي أمورٌ منِ اختصاصِ الخالقِ، فقد قيّدها بقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾؛ ليكونَ الحالُ مقترنًا بالفعلِ وقيدًا له كما تقدّمَ، وأنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذه القوَّةَ دائمًا، بل كانتْ هذه الآيةُ كغيرها لا تقَعُ إلّا بإذنٍ منَ اللّه، وتأييدٍ مِن لَدُنه[1]. كما أنَّ تعليمَه الكتابَ والحكمةَ، وكفَّ بني إسرائيلَ عنه، قد شاركَ المسيحَ غيرُهُ، فلا يناسبُه التّقييدُ المذكورُ[2].

سببُ عدمِ البدْء بـ (إذْ) عند الكلامِ عن إبرائِه الأكْمَهَ والأبْرصَ:

مناسبةُ ترتيبِ الألفاظِ على غِرار ترتيبِ زمن وقوعِ الأحداث

لمّا كانَ الإبراءُ بمعنى التَّخليقِ عطفَ ﴿وَتُبْرِئُ﴾ على ﴿تَخْلُقُ﴾، ولَم يَبدَأ بـ (إذ)؛ لأنَّ الإبراءَ فيه: بثُّ الحياةِ للأعمى فيبصرُ الدُّنيا، وللأبرصِ فيعودُ جلدُه سليمًا فلا ينفرُ منه النّاسُ؛ ليكونَ الإبراءُ المجموعُ في العاهتينِ آيةً واحدةً في الإعجاز، فناسبَ أن يكونَ الفعلُ ﴿وَتُبْرِئُ﴾ معطوفًا على ﴿تَخْلُقُ﴾. ولمّا كانَ إحياءُ الصّورة منَ الطَّير أعظمَ مُعجزةً مِن إبراء الأكمه والأبرص؛ ذُكِرَ الإبراءُ بالتَّبَع لإحياء الصّورةِ، فإبراءُ الأكمَهِ والأبرَصِ مِن جنس شفاء المرض الّذي قد يقعُ بعضُ أفرادِه على أيدي غير الأنبياء المرسَلين، ولا سيَّما مَن يَظنُّ المرضى فيهم الصَّلاحَ والولايةَ، فلمّا كان كذلك ذُكِرَ بالتَّبع لإحياء الصّورة منَ الطَّير، ولمّا كان إحياءُ الموتى أعظمَ منه جُعِل

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/491.

نعمةً مستقلَّةً فقُرِنَ بـ (إذْ)[1]. كما أنَّ معنى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ متوسّطٌ بينَ معنى التَّخليقِ ومعنى الإحياءِ؛ لِوقوعِهِ بعدَ خلق الإنسان وقبلَ موتِه، فناسبَ ترتيبُ اللَّفظِ بتوسّط الفعل بينهَما ترتيبَ زمنِ وقوع الأحداث.

دَلالةُ (أل) في ألفاظ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

تعريفُ الألفاظ بدلالةِ (أل) على العموم؛ مُنبئةٌ عـنِ الإعـجـاز المعلومِ

(أل) جنسيَّةٌ في ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا عهديَّةٌ، بمعنى: أنّها تفيدُ إرادةَ الجنس[2]، فليسَ المرادُ فردًا معهودًا معيّنًا مِنَ الأكمهِ والأبرصِ والموتى؛ ليكونَ الإعجازُ أعمَّ وأشملَ وأظهرَ، وهو المناسبُ لسياق الآية، ومع أنّ السّياقَ لم يُبَيّن عددَ مَن أبرَأهم عيسى، ولا عددَ من أحياهم، فإنَّ المفردَ يقومُ مقام الجمع، وإن كان الأكمهُ واحدًا والأبرصُ واحدًا؛ لأنّ العبرَة بخاصّية القُدرة الّتي منحها الله لعيسى ﷺ، حتّى إنَّ المفردَ يقومُ مقامَ الجمع، ولهذا بقيت (أل) فيهما دالّةً على جنس الأكمه وجنس الأبرص، أمّا ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فجاء جمعًا لتأكيد خاصيّة الإحياء الّتي منحها الله لعيسى، و(أل) دالّةٌ على الجنسيّة كذلك.

بلاغةُ الكناية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

الفعلُ المضارعُ (تُـخـرج)، اسـتـدعـاءٌ لـلـصّـورة العجيبةِ لإخراج الموتَى

قال هُنا: و﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ولم يقُل: (وتحيي الموتى)، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]، فورد الكلامُ على طريقة الكناية؛ لِمناسبة المقام التَّحدُّثَ بالنِّعم، والإسهابَ فيها تعظيمًا وتفخيمًا، وليس الإخبارَ كما في سورة آل عمرانَ، والكنايةُ هنا أبلغُ منَ التّصريح؛ لإفادتها تعدُّدَ النِّعم بذكر إخراج الموتى، ولازمه، وهو إحياؤُهم، والمعنى: تُخرِجُهُم مِن قُبورِهِم أحياءً، فأُطلِقَ الإخراجُ، وأُريدَ به لازِمُهُ، وهو الإحياءُ؛ لأنّ المَيِّتَ وُضِعَ في القبرِ لأجلِ

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/206.

كَونِهِ مَيِّتًا، فكان إخراجُهُ مِنَ القَبر ملزومًا لانعكاس السَّبَب الَّذي لأجله وُضِعَ في القبرِ[1]، وفي التَّعبير عنِ الإخراج بالفعل المضارع ﴿تُخۡرِجُ﴾ استدعاءٌ لتلك الصّورة العجيبة الّتي يخرج فيها المَيِّت، وقد بُثَّت الرّوحُ فيه، وعادتِ الحياة إليه.

الإيجازُ في ﴿إِذۡ﴾، وبلاغةُ التّرقّي في ذكرِ النِّعم:

تعليقُ الظّرفِ الزّمانيّ بالفعل دالٌّ على معانٍ، والتّرتيبُ دالٌّ على تقديم المَنْحِ على المَنْعِ

لمّا وردت ﴿إِذۡ﴾ في ثنايا الكلام خالفت بهذا ما تدلُّ عليه حينَ تكونُ مصدَّرةً في الكلام، فأفادت ﴿إِذۡ﴾ هنا - بسبب تعليق الظَّرف بمجيئِهم بالبيّنات - كفَّ بني إسرائيل عن نبيّ اللّه عيسى ﷺ في جميع مدَّة ظهور معجزاتِهِ بينَ قومِه، منذُ طفولته إلى حينِ رفعِهِ[2].

وبعدَ أن ذكرَ نِعمَ المنافعِ أتْبَعها بذكرِ ما دفَعَ عنه مِن مضارَّ، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾، وهذا مِن أعظَم النِّعَم؛ وهي نِعمَة العِصمَة، وكفّ بني إسرائيل عن عيسى ﷺ، وليُشعِرَ الكلامُ أنَّ النِّعمَ نوعانِ عطاءٌ وكفٌّ، وفي ذكر كلٍّ منهما امتنانٌ على عيسى بالتّأييد والتَّعليم والعصمة منَ الأذى، وفي ذكرها جميعِها تنبيهُ النّصارى وإشعارُهم بقدرة الإله، وعبوديّة المسيح.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

البيّناتُ يُرادُ بها الآياتُ المذكورةُ، أو يُرادُ بها جنسُ البيّناتِ على الإطلاقِ

يَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ من لفظ (البيّنات) هذه البَيِّناتِ الَّتي تقدَّمَ ذِكرُها، وعلى هذا التَّقدير فـ (أل) للعهد. ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ منه جِنسَ البَيِّناتِ[3]، وهو الظّاهرُ لمناسبة السّياق تعميمَ النِّعم واستيعابَها.

سِرُّ التّعريفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

بـيـانُ قَـسْـوة قـلـوبِ الّـذيـن كـفـروا، رُغْـمَ ما جـاءَهـم من آياتٍ ومُعجزاتٍ

فيه بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ﴾، لإحضارِ صِلتِهِ: ﴿كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾؛ فأشعرتِ الصِّلةُ أنَّ كفرَهم، هو سببُ قولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وأنّهم كاذبون في قولهم، ويمكنُ أن تُشعِرَ الصِّلةُ بتعداد النِّعم أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ، فطعنُ الكفّار فيه يدلُّ على علوِّ شأنه وسُموِّ مكانته[1]. ولا يخفى بأنَّ التّعريفَ باسم الموصول لِذَمِّهم، بما في حيّز الصِّلة، ولتكونَ وصلَةً إلى مَقول القول؛ تنبيهًا على ما فيه من تشنيعٍ عليهم؛ لقسوة قلوبِهم بعد ما جاءهم من آياتٍ بيّناتٍ، ومعجزاتٍ ظاهراتٍ.

بديعُ حُسنِ الانتقالِ، من حالٍ إلى حالٍ:

الـتّـنـويـعُ بين المعنى الظّاهرِ والضِّمْنِيّ بالمِنّةِ عـلى المؤمنين، هـو تـقـريـعٌ للكافرين

سبق أنَّ الله سبحانه امتنَّ على عيسى بنعمة التّأييد، والتّعليم، والعصمة؛ وذلك بكفِّ بني إسرائيل عنه، حين جاءهم بالآياتِ البيّناتِ، والمُعجزاتِ الظّاهراتِ، فتربّصوا به شرًّا متعلّلين بأنّه يخدعُ أبصارَهم كما في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾. وفي النّصّ على الّذين كفروا من بني إسرائيل تقريعٌ وذمٌّ ظاهرٌ تخلَّص منه إلى ثناءٍ وتكريمٍ مُتَضَمَّنٍ للمؤمنين المُصدِّقين بعيسى[2]، وهم الحواريّون كما يدلُّ قولُه بعده: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾. ومِن لطيفِ الكلام وبديع التَّعبير مجيءُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في الآية، فوضعَ الضَّميرَ (هم) لِذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة، ففيه معنى التَّأكيد؛ لِتكرار (الكافرين) اسمًا ظاهرًا وضميرًا عائدًا إليه، فـ (مِن) بيانيَّةٌ، وليست تبعيضيَّةً[3]. كما أفادَ الجارُّ والمجرورُ حُسْنَ التّخلُّص من تقريع الكافرين وتوبيخهم إلى تكريم المُصدّقين بنبيّ الله عيسى ﷺ، فلمّا كانت ﴿مِنۡهُمۡ﴾ تقييدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

للصِّلة أفادت أنَّ غيرَ الكافرينَ لم ينسبوهُ إلى السِّحر، ولم ينسبهُ إلى السِّحر إلّا الكافرونَ.

سببُ الاقتصارِ على دعوَى السِّحرِ، دونَ سِواها:

اقتُصِرَ مِن دَعاوي تكذيبِهم إيّاهُ على قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ ذلك الادِّعاءَ قَصَدوا به التَّوَسُّلَ إلى قَتلِه؛ لأنَّ حُكمَ السّاحِرِ في شريعة اليَهود القَتلُ، إذِ السِّحرُ عِندَهُم كُفرٌ[1]، وهذا شأنُهُم وخَصلَةٌ فيهم لم تَنسلِخ عنهم أبدًا، فكلّما أرادوا إفسادًا وقتلًا قدَّموا له الذّرائعَ الباطِلةَ؛ لتسويغ قتلِهم وإفسادِهم.

الرّغبةُ في قتل عيسَى عليه السلام؛ بحجّةِ أنّ السّحرَ محرّمٌ في شريعة اليهودِ

بلاغةُ أسلوبِ القصْرِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

لمّا كانَ أسلوبُ القصرِ يُسلَكُ فيه الكلامُ مع مُخاطَبٍ، يَعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّهُ مخطِئٌ، ويُصرُّ على الخطأ[2]، أفادَ قولُ الكافرين منهم على طريق القصر أنّهم كانوا يعتقدونَ كذِبَ عيسى عليه السلام فيما جاءَهم به مِنَ البيّناتِ، ولمّا كانتِ البيّناتُ كثيرةً فقد كانوا يعتقدونَ إصرارَهُ على الكذب في كلِّ معجزةٍ واضحةٍ يجيءُ بها، وربّما كانتِ الآياتُ البيّناتُ الّتي جاءهم بها عيسى تدفعُهم إلى المبالغة في الاتِّهام، وإيهامِ العوامِّ بصدقِهم في قولِهم عن عيسى ذلك القولَ الباطلَ، ودأبُهم في الكذب وتأكيدُه بأسلوب القصر معروفٌ، كقولِهم لمّا نُهوا عنِ الإفساد في الأرض: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

البيّناتُ كثيرةٌ، والإصرارُ على التّكذيب كَبيرةٌ تَوَهَّمَا وزَيْغًا

وعبَّر باسم الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لتمييز المُشارِ إليه، وهي المعجزاتُ الواضحاتُ أكملَ تمييزٍ؛ ليُخبِرَ الّذين كفروا عنها بأنّها سحرٌ، وأفادَ استعمالُ اسم الإشارة القريب أنّهم قصدوا تحقيرَ المعجزات الواضحات استهزاءً منهم بها، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]، وقولُه: ﴿أَهَٰذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، وإذا كانَ المقصودُ مِن ﴿هَٰذَآ﴾ عيسى ﷺ، كما تدلُّ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ[1]: ﴿سَٰحِرٌ﴾، دلَّ اسمُ الإشارة على أنّهم أرادوا تمييزَ عيسى ﷺ أكملَ تمييزٍ؛ ليكون الحكمُ عليه واضحًا لأتباعِهم كذلكَ، ولأنَّهم قصدوا باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ تحقيرَ سيّدِنا عيسى ﷺ.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

الحرفُ (إنْ)، أبلغُ في النّفيِ مِن (ما)؛ للمبالغة في الإيهامِ بصِدقِهم

قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ آثَرَ فيه إيراد ﴿إِنْ﴾ النّافية، فلم يقُل: (ما هذا إلّا سحرٌ مبينٌ)؛ لأنّها أكثرُ تأكيدًا مِن (ما)؛ لتفيدَ المبالغةَ في الحصرِ؛ لبيانِ عنادهم وشدّة مكابرتِهم، أو للرّغبةِ في الإيهام بصدقِهم، وعادةً ما يلجأ الكذّابُ إلى تأكيد كذبِه بوسائلَ متعدّدةٍ.

مناسبةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّبِينٌ﴾ في السّياق:

عُتوُّ الكافرين وتجهيلُ أتباعِهم، مُشعِرٌ بسُوءِ حالهم

وصفَ الّذين كفروا من قومِ عيسى ﷺ السّحرَ بالمُبين؛ للتّعريض بالبيّناتِ الّتي جاءَ بها عيسى ﷺ، فالاشتقاقُ من نفس المادَّة اللُّغويَّة، فأشعرَ التّعبيرُ بالوصفِ بعتوِّهم في كفرِهم، وبتجهيلِ أتباعهم، فكأنّهم يقولون: ما جئتَ بهِ ليسَ منَ المعجزاتِ الواضحاتِ، بل هو منَ السِّحرِ الواضحِ، فأفادتِ الصِّفةُ التَّعجيبَ من قولِهم، وغُلوِّهم في كذبِهم وخداعِهم، وتَمويهِهم على قومِهم.

سببُ مقابلةِ لفظِ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، بالمفردِ ﴿هَٰذَآ﴾:

مُكابرةُ الكافرين في جَعْلِ المعجزاتِ كلِّها شيئًا واحدًا

لمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على صيغة الجمع؛ كانَ مقتضى ردِّ الّذينَ كفروا أن يكونَ بالجمع كذلك، لكنَّهُ جاءَ بصيغة المفرد، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للإشارة إلى مكابرتِهم وطعنِهم في المعجزات الواضحات المتنوِّعة، فجعلوها كلَّها شيئًا

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

واحدًا، ولها وصفٌ واحدٌ، هو السِّحرُ. وإذا كان اسمُ الإشارة دالًّا على عيسى ﷺ، فالمعنى وصفُ البيِّناتِ بالسِّحر؛ لأنَّ ما يصدرُ منَ السّاحر هو السِّحرُ، فبدَلًا من أن يقولوا هذه المعجزاتُ سحرٌ، اختصروا الأمرَ فوصفوا عيسى ﷺ بالسِّحر، كما توضِّحه قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَف.

توجيهُ قراءتَيْ ﴿سِحْرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾:

تنوّعُ القراءاتِ مَلْمَحٌ للثّراء، ومَسْلَكٌ للتّأويلِ المُفيدِ

أولًا: اختلفَ القرّاءُ في قراءة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فقرأ الجمهورُ ﴿سِحْرٌ﴾ بغَير ألف، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ ﴿سَٰحِرٌ﴾ بالألف[1]، والرّسمُ يَحتملُ القراءتَين. فعلى قراءة الجمهور: يَحتمل اسمُ الإشارة أن يكونَ عائدًا إلى المعجزات الخارقة الواضحة؛ والمعنى: ما هذا الّذي جاءَ به منَ الآيات الخوارِق إلّا سِحرٌ وتمويهٌ وتخييلٌ لا حقيقةَ له، ويحتمل أن يكونَ عائدًا إلى عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ جَعَلوه نفسَ السِّحرِ على المبالغة في الإخبار بالمصدر عنِ الذّات، أو على حذف مضافٍ؛ أي: إلّا ذو سِحرٍ. وعلى قراءة ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِف بصيغَةِ اسم الفاعِلِ - يكون اسمُ الإشارة عائدًا إلى عيسى؛ والمعنى: يُبّينُ بأفعالِه، وما يأتي به من هذه الأمور العجيبة عن نفسه أنَّهُ ساحرٌ لا نبيٌّ صادقٌ. فمَن قرأ ﴿سِحْرٌ﴾ جعلَ الإشارةَ إلى البيِّنات والحديث وما جاءَ به، ومَن قرأ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِف بصيغَةِ اسم الفاعِلِ - جعلَ الإشارةَ إلى الشَّخص، إذ هو ذو سحرٍ عندهم، وهذا مطَّردٌ في القرآن كلِّهِ حيثما وردَ هذا الخلافُ، وهو في أوّل سورة يونس، وفي سورتي هود والصّفّ[2].

السِّحْرُ مِن أكْبَرِ الجرائمِ في كُلِّ العُصورِ، ولا يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أتى

بلاغةُ قراءتَيْ: ﴿سِحْرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾ في التَّعبيرِ عنِ المعنى:

القراءتان مُتّفقتانِ في المعنى غيرُ مختلفتينِ مآلًا؛ لاقتضاءِ لازم

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/216، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، ورضا، تفسير المنار: 7/207.

معنى القراءة الأولى معنى القراءة الثّانية، ولازم معنى القراءةِ الثّانيةِ معنى القراءةِ الأولى، وذلك أنَّ كلَّ مَن كانَ موصوفًا بفعل السِّحر، فهو موصوفٌ بأنَّهُ ساحرٌ، ومَن كانَ موصوفًا بأنَّهُ ساحرٌ، فإنَّهُ موصوفٌ بفعل السِّحر. وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ اليَهودَ قالوا لعيسى كلتا المقالَتَين، بأن تكونَ صادرةً من جماعتين منهم على التَّفريق، أو أن تكون على اختلاف جماعاتِ القائلينَ أو باختلاف أوقات القَول[1].

وعادةً ما يكونُ الاتِّهامُ في المرّة الثّانية أوكدَ منه في المرّة الأولى، وهذا يعني أنَّ قراءةَ ﴿سِحْرٌ﴾ تدلُّ على موقفٍ واتّهامٍ سابقٍ، وأنّ قراءةَ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِفِ بصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ - تدلُّ على موقفٍ واتِّهامٍ لاحقٍ أوكدَ وأقوى في التّكذيب والاتِّهام.

ثانيًا: قرأَ الجمهورُ ﴿طَيْرًا﴾ بصيغة اسم الجمع، وقرأَ نافع وأبو جعفر ويعقوبُ ﴿طَيْرًا﴾ بالمفرد[2]. والمعنى على قراءة الإفراد: تُقَدِّرُ هَيئَةً كهيئة الطَّير فَتَكونُ الهَيئَةُ طائِرًا؛ والمعنى: كُلُّ هَيئَةٍ تُقَدِّرُها تَكونُ واحدًا مِنَ الطَّير؛ أي: إنَّه كان يَخْلُقُ واحدًا ثمَّ واحدًا. والمعنى على قراءة الجمهورِ باعتبار تَعَدُّدِ ما يُقَدِّرُهُ مِن هَيئاتٍ كهيئة الطّير. والمعنى على القراءتينِ واحدٌ باعتبار المآل، وهو تعدّدُ الطَّير وكثرتُه؛ للإشارة إلى تكثير المُعجزات البيِّنات، وقد وردَ عن بعضِ اللُّغويّينَ أنَّ الطيرَ يقُالُ للجمع وللمفرد[3]، فتكون القراءتانِ على معنىً واحدٍ، هو الإفرادُ، والمرادُ تعدّدُ الأفراد وكثرتُها.

التّشابهُ اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِى﴾، وقوله في مواضعَ أُخرى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

الإذْنُ مُؤذِنٌ بأنّ ما لَـمْ يَـأْذَنْ بِهِ اللهُ لا وجودَ له ولا بقاءَ

أوّلاً: ذكَر ﴿بِإِذْنِى﴾ هنا في المَواضِع الأربعة، وفي سورة آل عمران:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/240.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/258.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مرّتين، فقال تعالى: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]، والسَّببُ هو الاعتناءُ بتحقيق الحقّ، ببيان أنَّ تلكَ الخوارقَ لَيْسَتْ مِن قِبَلِ عيسى ﷺ، بل هي مِن عند الله سُبحانَه قد أظهرَها على يديهِ معجزةً له ونعمةً خصَّه بها، فقيَّدَ فعلَ كلِّ مرحلةٍ من مراحل الإعجاز بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾، ومنه تقديرُ هيئة الطّيرِ قبلَ نفخ الرّوح؛ تنبيهًا إلى أنّه لا قدرةَ لعيسى ﷺ على فعلِ أيِّ معجزة من دونِ إذنه تعالى.

وفي التّكرار توبيخٌ للكافرين يومَ القيامة، وتنبيهٌ لمَن هم في الدّنيا، فناسبَه الإطنابُ والإيجازُ. وأمّا ذكرُه في سورة آلِ عمرانَ مرّتين فلأنَّ ذلك موضعُ الإخبار، وليس في سياق تَعدادِ النِّعم[1].

التّشابهُ بين إضافةِ (الإذن) إلى الضّمير في: ﴿بِإِذۡنِي﴾، وإلى الاسم الظّاهر في ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

ثانيًا: عبَّر هنا في آية المائدة بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ مُضافًا إلى ضمير المتكلِّم، وهو الله ﷻ، وورد في سورة آلِ عمرانَ مُضافًا إلى اسمِه الجليلِ سبحانه؛ فقال: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]؛ لأنَّ آيةَ آلِ عمرانَ في سياق الإخبار، فَوَردتِ الإضافةُ إلى الاسم الظّاهر (اللّه) لمناسبة السّياق، ولو جاءَ بالإضافة إلى ضمير المتكلِّم بَطَلَ المعنى؛ لأنَّ المتكلِّمَ هو عيسى ﷺ. وفي مجيءِ الاسم الظّاهر تذكيرٌ بألوهيَّة الله تعالى في سياق الإخبار، وأمّا آيةُ المائدةِ هنا فهي في سياق نداء الله تعالى لعيسى ﷺ في مقام حضور الخلق أجمعين؛ لمناسبةِ إسماعِ الحاضرين، وتوبيخِ الّذينَ كفروا من قوم عيسى ﷺ، وتعنيفِهم، فأضافهُ إلى ياء المتكلّم، والتّوبيخُ في سياق حضور المُخاطَبينَ يومَ القيامة أشدُّ تبكيتًا وتعنيفًا منه في سياق الغَيبة، فناسبَ كلُّ لفظٍ سياقَهُ.

التّشابهُ اللّفظيُّ، مع تذكيرِ الضّمير في: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾، وتأنيثِهِ في: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾:

ثالثًا: سببُ تذكيرِ الضّمير في سورةِ آل عمران: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ [آل عمران: 49]، وتأنيثِهِ في سورة المائدة فقال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا﴾؛ أنَّه لمّا كانت آيةُ آلِ عمرانَ في

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/85، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

سياق الإخبار ذكرَ تخليقَ الطَّير على الإيجاز، فجعلَ تخليقَ هيئةِ الطَّيرِ مِنَ الطّين، ونفْخَ الرّوحِ فيهِ نعمةً واحدةً، إذ جاءَ قولُه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرّةً واحدةً في مقابل هذهِ النِّعمةِ، فجاءَ الضَّمير (فيه) مذكَّرًا؛ لِرجوعِه إلى الطَّير. وفي آية المائدة جعلَ تخليقَ الطّينِ كهيئة الطَّير معجزةً ونعمةً، ونفخَ الرّوحِ في الهيئةِ معجزةً ونعمةً أخرى، فتعدَّدَ ذِكرُ النِّعَمِ؛ لأنَّ آيات المائدة بُنيَت على توبيخ النّصارَى، وتعنيفِهم في مقالِهم في عيسى ﷺ، فجاء الضَّمير مؤنَّثًا لِعَودِهِ إلى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى، وينفخُ فيها كما تقدَّمَ[1]، فناسب أن يكون الضّميرُ مؤنَّثًا لجعلِه تقديرَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطّيرِ معجزةً قائمةً بنفسها ونعمةً أخرى، فلمّا اختلَفَ القصدانِ اختلفتِ العبارتانِ. كما أنَّ اللّه تعالى قال في أوَّل الآية: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، فكانَ كلُّ معجزةٍ مذكورةٍ نعمةً، وهي على التَّأنيث، فناسبَ التَّأنيثَ على اعتبار أنَّ التّخليقَ بإذن اللّه نعمةٌ مِنَ اللّه تعالى وذكرَ بعضُ العلماءِ وجوهًا في مناسبة تذكيرِ الضَّمير في آية آل عمران وتأنيثِه في آية المائدة[2]، والنِّكاتُ المذكورةُ في هذه المناسبة لاتتقاطعُ، وكلُّها مقبولةٌ على الانفراد وعلى المجموع.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المَهْدُ) و(الصِّبا):

المَـهْـدُ فِـراشُ الصّبيِّ الرّضيعِ، ويُطْلَـق مجـازًا على زَمَنِ الصِّبا

الصّبيُّ: من لم يُفطَم بَعدُ[3]. ومَهدُ الصَّبيّ: موضعُه الّذي يُهيَّأ له، ويوَطَّأ؛ لينام فيه وقتَ تربيته[4]، ثمّ أُطلق المهدُ على زمن الصِّبا على سبيل المجاز، وقد نُسي المجازُ، وصار المهدُ هو الصِّبا بحسب العُرف، لكن بقي للمجاز إيحاؤُه ودلالتُه على الغفلة، والضَّعف، وعدم القُدرة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/84.
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).

على الكلام، ومن هذا يتبيّن أنَّ التَّعبيرَ بالمهد أوقعُ في الدّلالة على مُعجزة الله لمريمَ؛ إذ أَنْطَق لها ابنَها، وهو في هذه الحالة؛ ليُبرِّئَ ساحتَها ممّا اتّهمَها به قومُها - عندما جاءت تحملُ مولودَها من مكانٍ بعيد - في قولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27].

(الإذْنُ) و(العلمُ):

الإذْنُ والعِلْم كلاهما إعلامٌ بشَيْء، والإذنُ أَخَصُّ مِنَ العلمِ

في كلٍّ منَ الإذنِ والعلمِ إعلامٌ بشيءٍ ما، وخُصَّ الإذنُ بمعنى المشيئةِ مع التَّيسير، يقولُ الرّاغب: "بين العلمِ والإذنِ فرقٌ، فإنَّ الإذنَ أَخَصُّ، ولا يكاد يُستعمَلُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به"[1].

ومِن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالإذن هنا دونَ العلمِ، فإنَّ الله سبحانه قدَّر ما شاء جريانَه على يدِ عيسى مع تيسيره.

(الأكْمَهُ) و(الأعمَى):

الأكْمَهُ والأعْمَى كلاهما لا يُبصِران، ويَختصُّ الأكْمَهُ بأنّه مَطموسُ العَيْنَيْن

يجتمعان في مُطلَق فقدِ البصرِ، ويختصُّ الأكمهُ بالّذي وُلد مطموسَ العين بحسب الأصل فيه، فإيثارُ التَّعبير به في الآية أوقعُ في الدَّلالة على المعجزة؛ إذ ردُّ بصر مَن كان فاقدًا له بالكلّيَّة أصعبُ وأعزُّ من إرجاعِ بَصَر مَن فَقدَه لعارضٍ حدَثَ له[2].

(الكفُّ) و(المَنع):

الكفُّ يعني المنْعَ بقوّةٍ وشدّةٍ، ويكونُ باليَدِ وغيْرِها

الكفُّ بمعنى المنعِ، ويزيد عنه معنى الدَّفع بقوّة، وقد اكتسب هذه الخُصوصيّةَ من أصل معناه، فأصلُه كفُّ الإنسان، يُقال: كفَفتُه: أصبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها[3]، فكان استعمالُ الكفِّ في الدّفع مجازًا مُرسَلاً بعلاقة الآليّة، ونُسي هذا المجازُ، وصار الكفُّ حقيقةً في الدّفع بالكفِّ وغيرِه بحسب العُرف. وفي الكفِّ معنى آخر ليس في المنع؛ هو امتناعُ موالاةِ الفعلِ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(2) الرّاغب، المفردات: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفف).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 112.

ومن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالفعل ﴿كَفَفْتُ﴾ لما فيه منَ الدّفع بقوّة، ومنعِ موالاة الفعل وتكراره، وهذا يشيرُ إلى أنَّ بني إسرائيل كانت تتوالى وتتكرّرُ منهم محاولاتُ أذى عيسى عليه السلام؛ ممّا يدلُّ على إمعانِهم في الكيد، وكانَ اللّه سبحانه يكفُّ أذاهم أوّلاً بأوّل، ويدفعُ عنه بقوّةٍ منه سبحانه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»